

بيت من الشعر

ينتد حياة أديب من الانتحار

قصة واقعية حدثت للأديب الكبير

الأستاذ كامل كيلاني

الأستاذ كامل كيلاني ، أديب معروف في عالم الأدب والثقافة العربية . وهو ينحدر من أسرة عريقة في المجد ، وادعة هادئة ، تحافظ ما استطاعت على التقاليد الشرقية ، بل تعد مضرب المثل في التمسك بهذه التقاليد : وهم بحكم فطرتهم ومقتضى نشأتهم يألفون الهدوء والسكينة ، بل إنهم يستذكرون الأسفار والارتحال : فلم يتفق لهم ذات يوم أن غادروا القاهرة إلى ما سواها من مدن القطر ، ولست بمغال إذا قلت إنهم يرون الغربة وبعد الثقة فيما يتعدى حدود وطنهم من حى المنشية أو نخوم قسم الخليفة .

ولطالما كانت تجمعني به الصدفة في جلسة ممتعة ، فيقص على طرفاً من ماضى حياته وأصل نشأته ، فأصفي إلى حديثه في كثير من العناية والاهتمام .

ولقد جلست إليه ذات يوم في ساحة خلوية ، وبمعزل عن الضوضاء ، ومضينا نتجاذب أطراف الحديث في شتى الشؤون ، إلى أن جرتنا المقال — والحديث شجون — إلى ناحية مؤلمة من مفاوز الحياة : فأن أوغلنا في هذا الحديث حتى رأيت صديقي ، وقد اردب وجهه وتقلصت أعصابه ، ثم سكنت ساهما يعمن في التفكير وقد وضع إحدى يديه على جبهته كأنه يجمع شتات أفكاره ، ثم سمعته يغمغم بين شفطيه كلمات متقطعة ، فأنكرت ما رأيت من حالة صديقي وابتئت أنظر إليه مدققاً مستطلماً ، إلى أن تكشفت لي هذه الغميمة عن بيت من الشعر : إذ سمعته يقول وقد انطلقت أسارير وجهه :

وإذا صبرت لجهد نازلة فكأنه ما مسك الجهد

فقلت له : وما شأن هذا البيت والحديث الذي نحن فيه ؟ فقال صديقي كامل وقد اعتدل

في جالسته ونشط للحديث ،

لقد كان هذا الشعر سبباً في انقاذ حياتي ، وأنا قاب قوسين من الموت ، بل هو الذي بعثني حياً الى هذه الساعة ، حتى أجلس اليك هذه الجلسة ، وأقص عليك هذه القصة ، فسألته في دهشة : وكيف كان ذلك ؟ فقال أعزني سمعك . فأصغيت الى حديثه وكأن كل جوارحي آذان تسمع .

قال الصديق : كان ذلك منذ ثلاث عشرة سنة وكان سني إذ ذاك لا يتجاوز السابعة عشرة . وكانت شقيقتي الصغرى قد تزوجت في بلدة نائية من بلاد مديرية الفيوم ، ومضى على إقامتها هناك عام كامل . ولقد هبط علينا عامل البريد ذات يوم يحمل كتاباً منها تقول فيه : إنها حامل وإنها أوشكت أن تكون أمّاً ، فأثار هذا الخبر في نفس والدتي كثيراً من الاهتمام ، وساورتها المخاوف ، وذهب بها الخنو الوالدي الى أبعد مداه : فأخذت تفكر في مصير ابنتها — وهي في هذه الغربة — اذا تعسر بها الوضع أو أصيبت بحمى النفاس . . .

كانت هذه الهواجس شغلها الشاغل صباح مساء ، وهي بين لحظة وأخرى تسألني وأختي الكبرى أن نسارع اليها وهي في هذه الكربة فنعود بها الى القاهرة ، فكنّت أطيّب خاطرها وأزيل — ما استطعت — بعض ما علق بنفسها من هذه الوسوس ، فكان ذلك كان يزيدنا قلقاً ، ويؤجج في صدرها وطيس الاضطراب .

وفي صبيحة ذات يوم رأيته تغادر مضجعها مهمومة باكية ، وهي في أشد ما يكون من القلق والاضطراب فسألتهما وقد هاجني مارأيت : ما خطبك يا أمّاه ؟ قالت إن أختك الآن في حالة تستدعي الرحمة والأشفاق ، وهي في أشد الحاجة اليها ، فأسرع اليها ولا تتواكل . قلت ومن أنباك بذلك ؟ قالت لقد قضيت طوال ليلتي في أحلام مزعجة ، تترأى أمام عيني كأنها حقائق أو مرئيات غنيقة ، وكلها تدور حول تلك البنية النائية ، وما تعاني من المشاق وتجتشم من الصعاب .

قلت : هوئي عليك يا أمّاه فإن هي الا أضغاث أحلام تترأى لك في نومك بتأثير تلك الانفعالات النفسانية التي تعانينها سحابة النهار فيما يهيمك من شأن ابنتك .

قالت : إن رؤياي لا تحطىء : ولا بد من رحيلك أنت وأختك الكبرى في هذا اليوم . كان ذلك في أواخر الحرب العالمية الكبرى ؛ وكانت مصلحة السكة الحديد — بحكم الاقتصاد

فى تلك الظروف — قد ألفت كثيراً من القطارات حتى لم يبق غير قطارين يقومان ذهاباً وإياباً كل يوم بين القاهرة وبلاد الصعيد .

وكان لابد للمسافر الى هذه البلدة ان يقطع طريقه اليها متنقلاً بين ثلاث قطارات حتى اذا قطع آخر مرحلة من هذه الشقة ، ووصل الى محطة البلدة التى تقيم فيها ، يرى أمامه شقة أخرى يقطعها على صهوات الخيل ، أو ظهور الدواب ، فى ساعة وبعض ساعة .

ولا أطيل عليك الوصف ، فيما عايناه من المشاق فى تلك الشقة التى كانت أول عهدنا بالسفر . غير اننى استطعت أن أقول : إننى كنت طيلة هذه المرحلة أفكر فى أختى وقد بدأت أحلام أُمى تتمثل لى كأنها حقائق ، حتى لقد ذهب بى الوهم الى حد أننى سوف لا أراها الا جثة هامدة .

هذه حالى وأنا الرجل الشاب الفتى فى ذلك الوقت ، فما ظنك بحالة أختى التى ترافقتى فى السفر ، وقد ظلت طوال الطريق واجهة ساكنة ترسل الدعع كالوابل الهتان . وما زلنا على هذه الحال من القلق حتى وصلنا الى حيث تقصد ، ومن ثم انحابت عن أفئدتنا تلك السحب القائمة ، ولم تعد تساورنا المخاوف .

ولقد فرحت أختى ببقيانا وطمأنت خواطرنا ، وان كانت لم تجد بداً من السفر معنا اذ أنها كانت — كما تحس — على وشك أن تضع حملها بعد يومين أو ثلاثة . ولم يشأ صهرى أن يدع زوجه — وهى على هذه الحالة — أن تتقطع المسافة ما بين البلدة والمحطة على ظهر دابة ، بل استنص أحد أتباعه فى طلب «عربة البندر» وهى العربة الوحيدة هناك التى لا يتحرك «ركابها» إلا فى مهمة خطيرة ، ولا يستطيع احتمال أجرها الا كل موسر واسع الثراء . ورحلنا عند الأصيل فلم ندرك محطة السكة الحديد إلا وقد داهمنا المساء وقد بدأ الظلام يتغلغل فى أحشاء الفضاء ، وقد ضرب بجوابه على الآفاق ، فساورتنى أياما وحشة وبدأت أتلمس الخطر المحقق بنا من جراء هذه المرحلة . وما وصلنا الى المحطة حتى بدأت بوادر الألم تتتاب الشقيقة اليافة التى أشرفت على الوضع ولم يكن لها سابق عهد بالحمل .

ففكرنا طويلاً فى الأمر ، وقد رأت أختى المريضة المتعبة ألا مندوحة من العودة الى البلد ، وأيدتها الشقيقة الكبرى فى ذلك ، أما أنا فقد بقيت لحظة أفكر وأتردد .

غير انى مع هذا التردد كنت قد احتطت للأمر فيما إذا أزمعنا السفر ، فتركت شقيقتى تستريحان فى إحدى عربات الدرجة الثانية ، وذهبت فى طلب التذاكر للسفر .

وماعدت الى القطار حتى صفرت القاطرة إيذاناً بالتحرك فكنا أمام الأمر الواقع ، ولم نجد بداً من الاذعان لما شاءه القدر . وكان الخطيب المحتوم وقد انطلق بنا القطار ينساب كالأفيموان فى جوف الظلام ، وساءت حال شقيقتى عن ذى قبل ، وبدأ الألم يتغلغل فى أحشائها فعمننا الأسى جميعاً ، ولم تبق لنايد فى رفع الخطر . وكأن الطبيعة قد أحست بما نكابده . فشاطرتنا الجرع وقد اربد وجهها والتحففت السماء بمنزراً قائم من السحب والغيوم .

ووقف بنا القطار فى محطة القيوم فهممنا بالانتقال الى قطار الواسطة ، وكانت شقيقتى قد خارت قواها ، فلم تعد تقوى على المسير لتدرك القطار الثانى ، فضينا نعاونها ما استطعنا الى ذلك سبيلاً حتى بلغنا غايتنا بشق الأنفس . وما كاد يتحرك القطار حتى بدأ الرعد يقصف ، والبرق يلعلع ، والمطر يتقاطر رذاذاً ، يندثر بالعارض الهتان . وكان هذا التغيير الفجائى فى خلق الطبيعة قد زادنى اضطراباً وزاد شقيقتى وصباً على ما تعانیه من آلام ، فضقت ذرعاً باحتمال الخطب ومضيت أفكر فى مصير المريضة المتعبة اذا دهمها الخاض .

ومضيت أتمشى فى ردهة العربات بخطوات جنونية ، وقد قبضت إحدى يدي أدفع بها فى الفضاء ، كأنى أخاصم الطبيعة مهدداً أتوعد ... وفى خلال السكون ، وفى غضون ذلك الاضطراب النفسانى الذى يتأجج فى صدرى ، سمعت ضجة عنيفة كدت تتقطع لها نياط قلبى ، فهرعت مهرولا نحو المقصورة التى تقيم فيها أختى ، فرأيتها تتلوى من الألم الممض غير أنها ما كادت ترانى حتى حاولت جهد ما تستطيع أن تتجلد ، فضيت أستلمها الصبر وأنا أعلمها بكلمات متقطعة ليست بذات معنى ، وأنا لا أجد حولي ولا قوة لدفع الخطر .

وما وصلنا الى محطة الواسطة حتى كان الخطب قد ادلهم وتفاقم مصابى ، فندمت أيما ندم على أنى لم أتخلف فى مدينة القيوم ، وقد شططت فى غلوائى حتى وصلنا الى هذه المحطة التى تسكد تكون قرية لا فندق فيها ولا مئوى للمبيت ، ولكنى مع هذا وذاك رأيت أن لا مندوحة من المغامرة حتى النهاية ، وأن نشرب كأس الجزع حتى الثمالة ، وتعاونت أنا

وشقيقتي الكبرى على حمل الحامل حتى وصلنا إلى قطار الاكسبريس المكتظ بالركاب ولم يبق فيه قيد أنملة لواقف ، وكانت مقصورة الحرم عند نهاية عربته الثانية متخمة بالسيدات اللواتي شعرن بحرج الموقف ، فأفسحن لشقيقتي مكاناً للجلوس .

أما أنا فقد لبثت واقفاً أنظر إليها في ذهول ، وكأن وقع الخطب قد خدر مشاعري فلم أعد أحس بما أرى وأسمع ، ولبثت ساهماً أهز رأسي أو أعبت بطرف سترتي في حركة عصبية ، وكان البرد شديداً يهراً الجسوم ، غير أن حرارة فؤادي كانت تطفئ على ذلك الزمهرير فلم أحفل بنفسي ، وانطلقت إلى خارج العربة ووقفت أمام الباب بعد أن استوثقت من ارتاجه ثم ألقيت برأسي على حاجز العربة الأمامي وانفجرت باكياً بينما كانت السماء تنفجر بوابل كأنه السيل العرم ، ورفعت وجهي نحو صفحة السماء المتجهمة التي كانت تقذفني برصاص من البرد كأنه منطلق من فوهة مدفع رشاش ، وانطلقت من صدري صيحة يأس قاتل ، ولم تكذب تنبعت من صدري تلك الصيحة حتى سمعت مثلها في داخل العربة ، كأنه رجع الصدى لهذه الصيحة . فقدت بنفسي إلى جوف العربة أستطلع الأمر ، وقد اخضلت ثيابي بالماء واكمد وجهي بزرقة قائمة من انفج الصقيع . . ورأيتي أختي على هذه الحالة فتفرغت لمراءى ، وكأنها نسيت ما تعانيه . أما شقيقتي الكبرى فكانت تذوب والهة لمصاب أخويها ، وهي تحاول جهد ما تستطيع أن تغالب الأحزان أو تكفكف الدموع . . ورأيت شقيقتي تقاوم المخاض كمن يغالب القدر أو يناضل الموت في ساعة الاحتضار . وملت إليها مؤاسياً وأنا لا أدري ما أقول ، ولا أعرف أية حيلة لدفع الخطر . ولبثت هنيهة أئن في صوت خافت ، ثم تسالت خارجاً حيث اتخذت مكاني الأول أمام باب العربة غير شاعر بالبرد والمطر . .

وألقيت برأسي على حاجز العربة بعد أن أمسكت بقائمته ، ثم غصت في بحر عميق وبدأت أحس كأنني هابط من علو شاهق ، وقد احتبست أنفاسي بتأثير الصدمة الهوائية من أثر السقوط ، وقد تراءت أمام عيني المنمضتين سهام طائشة من أنوار مختلفة الألوان كأنها الشهب والنيازك . وكان صوت القطار ، في حركة انطلاقه ، يصل إلى سمعي كأنه منبعث من بعد سحيق .

وظفقت أعود إلى رشدي تدريجياً غير أنني أكاد لا أعرف كنه المكان الذي يحتويه

بينما كن شيخ أختي يتأمل أمامي ، وكأني أراها بعين الخيلة وقد غالبها المخاض فوضعت حملها في مكان عام من قطار السكة الحديد ، أو ماتت على أثر الوضع والنفاس .

تخيلت هذا الموقف فهالني وقع المصائب ، فانتفضت واقفا مرتعد الأوصال ، وأنا أفكر فيما عساه أن يكون من حالنا لو داهمنا ذلك الخطب ، ورأيت أختي - وهي فتاة الخدر ودره صدف الحجاب - تضع حملها في قطار غاص بالناس وعلى مرآي من الرجال والنساء ، تخيلت كل ذلك ففضلت أن أموت . أدركت كل ما تقدم وأيقنت أن هذه الساعة الرهيبة ستقضى على حياتي ، فأشفقت على نفسي من هول ذلك الموقف ، وهممت أستعجل ساعتي قبل أن أشهد هذه الفاجعة وعندئذ وطنت النفس على الانتحار .

وما كاد يجيش بنفسي هذا الخاطر ، حتى اندفعت في وثبة عصبية كمن نشط من عقال ، حتى وصلت اني حافة المهبط الذي يقع ما بين العربتين . ولم يبق بيني وبين الموت غير قيد أنملة ، فما هي إلا حركة ضئيلة حتى أكون قد استويت على الأرض ممزقا تحت دواليب القطار . وترويت قليلا ، ثم أحجمت برهة ، ولكنني عدت . فهممت وحاولت أن أقذف بنفسي ولكن صورة شقيقتي تمثلت لي في هذه اللحظة ، فتراجعت خطوتين ثم أسرعت إليها لاترود منها بآخر نظرة . .

كانت أختي قد أشرفت على اللحظة الأخيرة ، ولم يبق في قوس احتمالها أقل منزع . ونظرت إلى ساعتي فاذا هي تدبني بأنه لم يزل باقيا على وصولنا الى العاصمة نصف ساعة ولم يبق في مقدور المتمخضة احتمال لربع لحظة ، وعندئذ عاودتني فكرة الانتحار ووقفت ووقتي الأولى خارج العربة ، وقد توترت أعصابي حتى خلتنى سأنفجر كالقذيفة ، وقد تفككت أوصالي متناثرة في الفضاء . وبدأت أعصابي تتأثر بقرقعة حركة القطار التي كانت مترنه كأنها توقيع موسيقى عنيف وبدأت أحس تلك القرقعة المترنة كأنها تنبعث من رأسي ، بل خلت أن كل ما احتواني من العوالم الطبيعية كان يشارك القطار في ارسال هذا الصوت الموسيقي المترن أو تردد صده .

فالجبال التي تقع على جانبي الوادي ، كان ينبعث منها ذلك الصوت ، والرعد القاصف الذي كاد يطنني على صوت القاطرة كان يرسل هذه الحركة . والسحب المتكاثفة التي كانت تحجب القمر كانت ترى كأنها ترتطم ببعضها فتحدث صلصلة على إيقاع صوت القطار . وكنت أرى

الجبال كأنها تَمِيد مترعزة فتطبق علينا من الجانبين ، أو تقذفنا بالصخور والجنادل والسحب ، ستنفجر فترسل إلينا النار والحلم .

فثارت في نفسي تلك الثورة الهائلة ، فاندفعت نحو الهوة بينما كان وميض البرق ينعكس على الأرض التي يطويها القطار، فينير لي طريق الأبدية . وقذفت بنفسى وقد شعرت بشبه اغماء لولا أنني أحسست كأن يداً تجذبني من طرف سترتى ، فلبثت لحظة معلقاً بتلك القبضة وقد مالت رأسى نحو الأرض . وكأن القطار قد أدرك مصابنا وألم بسر بعض من يحمل، فأُسرع في انطلاقة ، بينما كانت تلك الحركات المترنة في القطار تتزايد بتزايد السرعة ، وقد تجلت لي واضحة كأنها أناشيد ترددها الملائكة والشياطين ، وكأن هذه الأصوات الموسيقية العنيفة المتمردة تنطق منشدة بيتاً من الشعر تتغنى به الجبال والسماء والخليقة جميعاً على إيقاع صوت القطار ، وكأنها كانت تقول :

وإذا صبرت للجهد نازلة فكأنه مامسك الجهد

ثبت إلى رشدى فرأيتنى أردد هذا البيت على إيقاع قرعة دواليب العربات ، وكأن ما كان يصل إلى أذنى من هذا الغناء ، هو ما كان ينبعث من صدرى . فتراجعت خطوتين وتلفت خلفى أتبين تلك اليد التي قبضت على سترتى ، فاذا هى أكررة باب العربية التي اشتبكت بحبيب السترة فحالت دون سقوطى ، كما نبهنى ذلك البيت من الشعر إلى بصيص من أمل . ونظرت إلى الساعة فأدركت أننا على مسافة عشر دقائق من ساحل النجاة ، فأمسكت بقاءتى الحاجز الأمامى أدفعهما بكلتا يدي ، وكأننى أستحث القطار على سرعة المسير ، بينما كنت أرفع عقيرتى منشداً بيت الشعر على صوت حركة القطار .

كنت أنشد الشعر ، وأنا أتحرك مضطرباً ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى الأمام والخلف بحركة اضطراب القطار فى سرعته . وبدأ القطار يقل من مسيره بينما كانت دواليبه ترد الشعر متباطئة تدريجياً ، إلى أن خلتها ترسل آخر أنفاسها فى خفوت وبطء ، وهى ترد عجز البيت إذ تقول بصوت متقطع . فكأنه ... ما ... مسك ... الج ... هد .

وهنا وقف القطار عند الحرف الأخير . وأسرعت نحو أختى فى لهفة أستطلع أمرها ، فاذا بى أراها بين الموت والحياة ، فحملناها بمؤازرة بعض السيدات إلى فناء المحطة ، واستقلنا أول سيارة صادفتنا ، ثم صحت بالسائق قائلاً — أسرع إلى القلعة ... بأقصى ما تستطيع ...